مقاييس النجاح

هل نقيسهُ بالشهرة او السعادة او الغنى او خلود الذكر ؟

ما النجاح ؟ ان رأي صموئيل سميلز[1] فيهِ معروف مشهور : يؤمُّ طالب صناعة مدينة لندن وهو لا يملك أكثر من نصف ريال فاذا ما وجد عملاً واصلَ ليله بنهاره في الانكباب عليهِ فيظفر برضى رئيسهِ وثقتهِ بهِ فيرقيهِ ثم يتخذه شريكاً له في عمله ثم يزوجهُ ابنتهُ فاذا مات كان من أصحاب الملايين

هذا هو النجاح المحسوس الذي يضيهِ والذي لا يختلف فيهِ اثنان

وكل رئيس وزارة رجل ناجح لانهُ لو لم يكن كذلك لما توصل الى هذا المقام الرفيع في إدارة أحكام بلاده . كذلك يحسب القاضي او رئيس الاساقفة او قائد الجيش او المؤلف الرائجة مؤلفاته ناجحاً من هذا القبيل ، كلٌّ في عملهِ الخاص . ويزعم أكثر الناس ان كلاً من هؤلاء كان يفضل إما ان يكون مثرياً وإما رئيس وزارة اذا تسنى لهُ ذلك . ولكن لا ريب في انهم افلحوا في العمل الذي تفرغوا لهُ

وتوجد بلا شك طرق أخرى لقضاء الحياة تشهي بعض الخلق ولكنَّ المجتمع الانساني لا يحسبها عادة تفضي الى النجاح

فقد كان روبرت برونتج (١٨١٢ — ١٨٨٩) الشاعر الانكليزي يظن ان العالم بالنحو والصرف الذي يقضي حياتهُ في تفهُّم مضامين الصرف الاغريقي معلقاً على عمله النجاح التام او الحياة التامة ، في مقدمة الناجحين . وقد عرفتُ عدة من هؤلاء العلماء فاذا هم لا يرقون مطلقاً الى تيجان تزدان بها رؤوسهم واذا هم أسرى عاداتهم لا غير ، ولو حيل بينهم وبين مكاتبهم وكتبهم يوماً واحداً لحلَّ بهم الشقاء ولم يهنأ لهم عيش

ويسلم جم غفير من الناس بالقول « إن السعادة غايتنا من الوجود وضالتنا المنشودة في الحياة » ومع ذلك ، وهو من المستغربات ، تراهم لا يعترفون بأن النجاح هو السعادة نفسها . ولو فعلوا ذلك لتحتم عليهم تغيير رأيهم في حقيقة النجاح تغييراً عظيماً . ولقد قيل ان الرجل السعيد يملك أفضل الاسباب لصيرورته سعيداً وذلك السبب هو سعادتهُ الراهنة .

(١) مؤلف كتاب سر النجاح

وربما كان هذا الاعتقاد صحيحاً . ولكن الرجل الفنوع ينقصهُ كثير من الاستعداد للجري في ميدان الحياة . لأن من يطلب قليلاً لا يفوز الاَّ بقليل . وقد يكون حب الشهرة والرفعة عند السعداء أحياناً مدعاة للسرور ولكنهُ في الغالب سلوى للاشقياء

ويدعونا جورج بورو (الرحالة الانكليزي المؤلف ١٨٠٣ — ١٨٨١) في أحد مؤلفاته الى الاعتقاد بأن « الميل الى الحلول الوسطى قد يكون صديقاً حميماً للانسان » — كأنهُ يقول — « ذكاء المرء محسوب عليه » او « إن العلماء يشقون بعلومهم » او « إن ذوي الجهالة لفي نعيم مقيم » فقد قال : « أن رمت يا صاح ان تكون حليفاً للحبور فارض بأن تكون مجنوناً . فأيُّ عمل عظيم كان ثمرة من ثمار المسرّة والحبور ؟ ومن هم الذين اشتهروا بالفطنة والقوة وتدويخ الاقطار ؟ أكانوا من أبناء السرور ؟ كلاَّ »

إن تراجم العظماء على الاجمال تؤيد رأي بورو هذا . على أننا لو تتبعنا نشأة اولئك العظماء لوجدناهم في الغالب قد عاشوا عيشة بؤس وافلاس مرغمين على الكفاح كفاحاً شديداً بلا معين ، اذلاَّء ، مضطرين اضطراباً يفوق الحدَّ الذي كانت تقتضيه أحوالهم . وطالما اعترفوا بأن أسعد ايام حياتهم كانت في أثناء جهادهم الاول الذي أسفر عن فوزهم فوزاً يسيراً في البدء . وكانت انتصاراتهم العظمى في بعض الاحيان لا يبقيها الاَّ زوال ابتهاجهم لانها كانت تأتي بعكس ما كانوا يقصدون فكانت محنتهم تعتلُّ بعد معاناة الشدائد التي لا بد من معاناتها لاحراز النصر ، او كانوا يعودون عادات تحرمهم التمتع بلذة الظفر اذا ما أُتوه . فلا يجرؤ بعد هذا أحدٌ على الزعم « ان الناجحين في الغالب سعداء » الاَّ اذا كان النجاح في اعمال غير شريفة او سهل المنال لا يقتضي جهداً وعناء

وأغلب العظماء ، كما يقول المستر اوغسطين بيريل في احدى مقالاته البليغة ينغصون عظمتهم لانها ليست من النوع الذي يهيمون به

كان جراي شاعراً مجيداً ونال عرضاً منصباً رفيعاً في احدى الجامعات بينما كان يصبو الى منصب قائد جيش مظفر ولكنهُ نظم قصيدتهُ « رثاء في مقبرة قروية » ولم يفز بالاستيلاء على مدينة كويبك . على حين دوّخ القائد ولف تلك المدينة وكان في اثناء انتصاره يقول « ليتني أنشأت مرثية كالتي نظمها جراي ولم أحرز هذا الفوز المبين »

ثم ان كارليل[1] الذي كان شعاره « الضرب افضل من الكلام » أو « السيف اصدق انباء من الكتب » قد خالف هذا الشعار فألف نحو ستة وثلاثين مجلداً أطنب فيها بفوائد الصمت

(١) ادب مؤلف اسكتلاندي (١٧٩٥ — ١٨٨١)

اما المرضى من الادباء مثل هنلي المقعد او روبرت لويس ستيفنسن المسلول فقد أطلقا العنان لتخيلاتهما في وصف ضروب الشدة والضعف واراقة الدماء البشرية

واذا غضضنا الطرف هنيهة عن مقياس البسطة لانهُ ليس مقياساً ثابتاً للنجاح — لان السعداء إما حيل بينهم وبين السعادة وإما قد الهتهم شواغل الحياة عن التفكير في هل هم سعداء حقيقة أو اشتياء — صادفتنا مشاكل اخرى عويصة تتطلب الحل وهي :

لماذا اعتدنا امتداح كل امر حميد الغاية حميداً ؟ وما سبب عظمة شأن امرىء في خاتمة تاريخ حياته وان كان وضيع المحتد ؟ أو هل تظن ان الذي يقضي حياتهُ متجشما اصعب المشاق ابتغاء القوة او المنصب او سعياً وراء الاعمال الكبيرة ناجحاً مع انهُ اذا ما نال اربهُ في النهاية لا يلبث ان يحرم ثمرة مجهوده وهي على قاب قوسين من فيهِ اما بسلطان الموت واما بدافع الضعف واما بسبب الكوارث العائلية ؟

أكان بولس الرسول مخفقاً لانهُ عوقب بقطع رأسهِ ؟ وهل كان نابليون قائداً غير مظفر لانهُ نفي ومات شريداً في جزيرة القديسة هيلانة ؟ وهل كان رفائيل[1] وموزارت[2] خائبين لان غصن حياة كليهما قصر رطباً

يكلف رجلان بغاية فيفوز احدهما بها وينظم الآخر فيها قصيدة بليغة فايهما الفائز . اثرت ياتريس آي الشعر الخالد على دانتي ولكن زوجها كان يحبها امرأة عادية . فايهما كان مفلحاً ؟ الرجل الذي حرمها ام الرجل الذي تزوجها ؟

أما وجوب الاحجام عن وصف اي انسان بالنجاح حتى يموت فيحكم عليهِ حينئذٍ الحكم النهائي — فلا يصلح اتخاذه قاعدة ثابتة ولا مقياساً صحيحاً للعظمة . فكم من رجال ماتوا في ربيع الحياة وبعضهم قضوا أشقياء مع انهم في بدء حياتهم قاموا باعمال جعلت العمران مديناً لهم

أما مشكلة نيل الشهرة بعد الموت واعتبارها عنصراً من عناصر النجاح فما زالت متعذرة الحل . فقد كان روجرس يعتقد أنهُ شاعر مفلق وقد تمتع بشهرته كل التمتع مع أنهُ غدا نسياً منسياً . ولو مات وردزورث في الخمسين من عمره لما كان من حظهِ الاعتراف بفضله في حياته أما الآن فهو آمن مطمئن على مقامهِ الادبي . وكان المصور الفرنسي ميليه في مترية على حين كان — ميله الانكليزي يكسب ٣٠ الفاً من الجنيهات الانكليزية في

(١) مصور ايطالي (١٤٨٣ — ١٥٢٠)
(٢) موسيقي نمسوي (١٨٥٦ — ١٨٩١)

كل سنة. فأيهما كان أعظم نجاحاً؟ المصور الافرنسي الذي رسم «الانجلوس» أم الانكليزي الذي صوَّر على رقع الكتان صوراً حازت اعجاب الجمهور فراجت سوقها؟

وهذه المسائل التي يصعب تفسيرها تفسيراً مقبولاً لا بدَّ ان تسوقنا الى البحث عن معيار آخر للفلاح لا يقوم على النجاح المادي الظاهر الذي فتن به صموئيل سميلز. لان النجاح متعلق بكنه الانسان أو مصيره ولا يقوم على ما يكسبهُ او يربحهُ. وهذا مما يرجع بنا الى المشكلة القديمة. كيف نحكم على الانسان — بصفاته الظاهرة او بحقيقته غير الظاهرة؟ وقد بحث فيها سقراط الفيلسوف في الجزء الاول من كتاب افلاطون المسمى «الجمهورية» وأدت به مباحثهُ الى الاعتراف «بأنهُ خير للانسان التحلي بسجية العدل من تظاهره به ولو مات الدعيُّ حائزاً لسمات الشرف وشارات الاكرام وهلك الرجل العادل شقياً بعد احتماله صنوف التعذيب والآلام»

ونحن إذا ما قرأنا تلك الجملة التي كتبت في القرن الرابع قبل الميلاد كان في وسعنا إدراك قصدَ نيتشه[1] بقوله «إن افلاطون كان مسيحيًّا قبل ظهور السيد المسيح نفسه» فان كنت تصبو الى النجاح فلا بدَّ لك من استثمار حياتك استثماراً سديداً. أما البحث فيما يعود عليك من ذلك فليس لهُ شأن في قياس النجاح

على المرء ان يسعى الى الخير جهده وليس عليهِ ان تتم المقاصد

ولا بدَّ أن هذا المقياس الجديد للفلاح يزيّف بعض الابطال الذين نوَّه بهم صميلز كما يزيف بعض المشهورين الذين يشيد بذكرهم المستر لويد جورج

وكم افلحت طوائف من الناس بسلوك سبل عملية كانت مفضية (على غير انتظار) الى خير عميم. وكم سعدت باتهاز الفرص عند سنوحها كما حدث لبعض الذين احتكروا اصناف البضائع وقتاً ما فضموا منها ارباحاً طائلة وساروا في طريقهم لا يعترضهم اي حائل بينما كان غيرهم يئنُّ من فداحة اعباء المعيشة. وهذا هو الظلم الاجتماعي الذي يثير استياء المساكين. ونحن يشقُّ علينا الاحجام عن الاعتراف بان هذا الضرب من النجاح هو الممدوح كثيراً والمحسود عليهِ صاحبهُ والمنشود من الآخرين اكثر مما يجب ان يكون

وقد يتغاضى المرء نفسه عن عيوبه الشخصية ويتجاهل أن سيرته عرضة للانتقاد ولكن هذا النوع من النجاح السمج لا يتناسب مع سمو الاخلاق بل هو مفسدة لها وفي وسعنا ان نتحقق ذلك حق من دون التحذيرات التي جاءتنا بها الكتب المقدسة

(١) هو فريدريك نيتشه الفيلسوف الالماني ولد سنة ١٨٤٤ وتوفي سنة ١٩٠٠

وخارج ميدان التجارة نرى كثيراً من الشهرة التي يدعوها الناس نجاحاً ناجمة عن استئثار رجل معروف بشهرة رجل غيره احقُّ منهُ بها او على الاقل يشاركهُ فيها. وعليه نرى انهُ لا يسهل علينا الاجابة عن المسألة التي ابدعها سقراط — هل نحكم على حقيقة الرجل او على ظاهره؟ لانهُ يكاد يكون متعذراً معرفة الحقيقة من الظاهر

ولكن اذا كانت أركان النجاح تتوقف على استخدام أكثر مواهبنا الطبيعية وأفضلها فكيف يحصل الفلاح من دون التخصص في شيء ما؟ ومن ذا الذي ينبغ في عمل لم يتخصص به؟

انا لنغبط الرجل المتناسب أعضاء الجسم بسبب ما يجنيه من جم المنافع ولكن ليس اولئك الرجال هم الذين لهم فضل يذكر على الانسانية

وانا لنستصوب الاقتداء بالسير جون لبوك الذي كان (لورد افبري) يهتم بكل صغيرة وكبيرة، فمن مباحث في تربية النحل الى مباحث في أعمال المصارف المالية. او التشبه بالسر اندرو لانج الذي كان يكتب آنا كتابة بليغة في لعبة الصولجان. وآنا آخر يفيء الفكاهات في كل ما يتعلق بالشعوب القديمة من عادات واعتقادات وتقاليد وخرافات وما شاكلها وهذا عدا ترجمته الياذة هوميروس

أولا يحسب ليوناردو دافنشي[1] ناجحاً وهو ذلك النابغة الذي لم يبلغ شأوه أحد من معاصريه والذي فرّق بعض مواهبه شذر مذر فأضعف نتاجها بمحاولته عمل اشياء كثيرة فانجز نصفها ولم يتمكن من اتمامها كلها بل مات وتركها ناقصة؟

أما رأيي في التخصص فانهُ اذا كان الشيء المراد التخصص فيه دنيئاً دالاً على الاثرة أو غير محمود الاركان الفوز فيه كثير الكلفة لان سلوك السبيل الى هذا الفوز يفسد النفس ويهبط بالاخلاق الى ادنى الدركات. ولكن اذا عقد امرؤ نيتهُ على القيام بمحمدة من المحامد وخيّل اليهِ وجوب التفرغ لها فان تضحيتهُ في هذا السبيل لا تكون كبيرة كما يظهر لهُ أولاً

اما الفضائل الثابتة: ومنها التقوى، والصدق، والجمال فان كل فضيلة منها تنطوي على الاخرى فاذا اتبعنا احداها باخلاص أسوة بالقديسين أو العلماء أو رجال الفنون فانا لا نخسر جميع ما تعلمهُ من الفضيلتين الاخيرتين

---

(١) ولد سنة ١٤٥٢ وتوفي سنة ١٥١٩ — مصور ابطالي ومثال — مارس صناعته في مدينتي ميلانو وفلورنسا فرسم في الاولى صورة (العشاء الاخير) وفي الثانية (معركة القلم) ثم أنشأ تمثالاً لمدينة ميلانو وكتب مقالات شتى في التصوير والتاريخ الطبيعي والعلوم ومن صوره «الجوكوندا» المشهورة

وكل مسعى شريف يذيع صيتهُ في الآفاق — وبذا لا يضيق المجال أمام العقول الواسعة فاذا استوعبنا دراسة موضوع ما تيسر لنا التوغل في دراسة غيره . وهذا خير لنا من المعارف السطحية أو القشور التي نلهو بها من عدة مباحث في آن واحد

***

قال السيد المسيح في ثنائهِ على يوحنا المعمدان ان الانبياء أعاظم الناس . ولكن النبيَّ شخص مُلهم . فما هو نوع العظمة الذي يلي العظمة الروحية التي تبلغ اوجها في الانبياء ؟ وكيف نبلغهُ ؟

اولاً يجب ان نقع على عمل يتفق مع ميولنا الطبيعية . وثانياً يجب ان نوجد الغاية في الانكباب عليهِ . وقد قال كارليل في ذلك «مبارك الذي وجد عملهُ . ليصرفْ همهُ عن البحث عن بركة اخرى»

وقد يكون العملُ سافلاً او الغاية غير نبيلة فالنجاح في تحقيقها نجاح في الشرّ وهو ما لا تنفكُّ عن انتقاده بهِ

ومن أسمى الامثلة في وضع خطة والسير عليها سيرة جيمون المؤرخ على اننا نفضل عليهِ تشارلس داروين والسير فرنسيس جالتون وپاستور

ولما كانت الاكتشافات العلمية لا نهاية لارتقائها فقد وسم البعض نيوتن وداروين بعدم التنزه عن الخطإ . ولكننا قلنا إن الخاتمة ليست من أركان النجاح لأن الرجل الذي وسع نطاق المعارف واتى كل ما استطاعهُ مخلوق في حياتهِ ان يأتيهُ لخير بني جنسهِ يجب ان يحسَب ناجحاً ولو انقلبت تعاليمهُ كما تقدم البحث

اما الرجال (العمليون) الذين كانت نتائج اعمالهم غير مأمونة العواقب سريعة الزوال ومنهم يوليوس قيصر ونابوليون وبسمارك فان الطرق التي سلكوها والمقاصد التي نحروها كانت اقل نزاهة من مقاصد العلماء المكتشفين ورجال العلم المخترعين

ولكن اصوات الجمهور تجعلهم في أعلى عليين فوق هام العلماء والمفكرين . أما انا فلا يسعني الاَّ الاسف على هذا التصرف الممقوت لان أولئك القواد الحربيين قد اختلسوا من المجتمع الانساني اكثر مما نحوهُ بهِ من المنافع ثم سببوا للعالم مصائب لا تحصى . وسيأتي يوم تنقشع فيهِ غياهب الجهل عن أبصار الجمهور المتسرد فيصر في وضع النهار ما استفادهُ العالم من محي خير الانسانية فيمجدهم أكثر مما يمجد الامبراطور نابوليون وغيرهُ من القواد العظام الذين عملوا على محق البشرية

ملخصة بتصرف عن الانكليزية عوض جندي

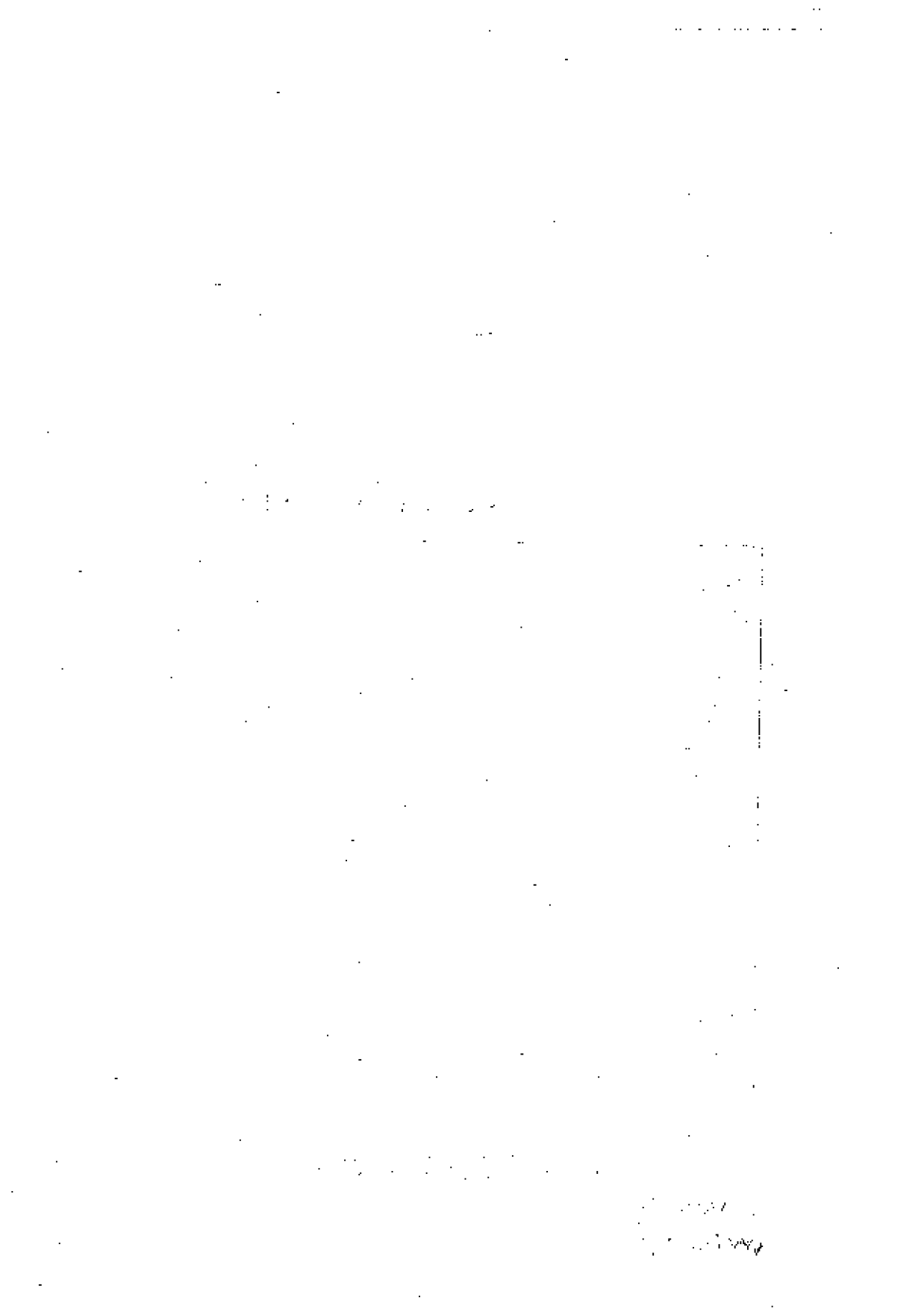

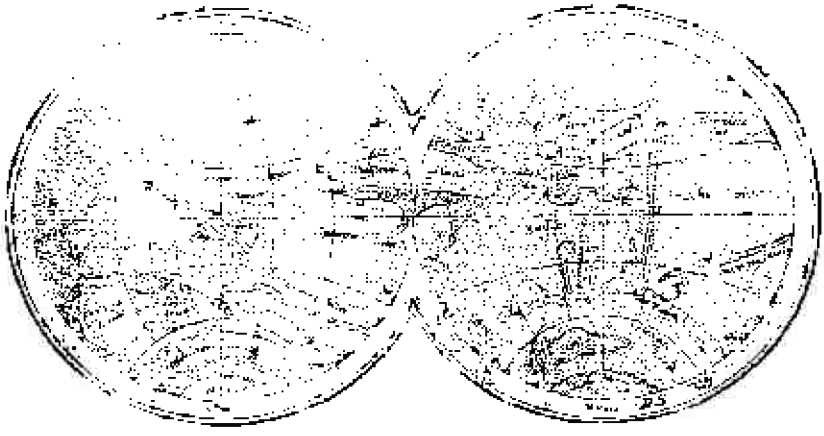

خريطة المريخ كما رسمها بروكتر منذ نحو خمسين سنة

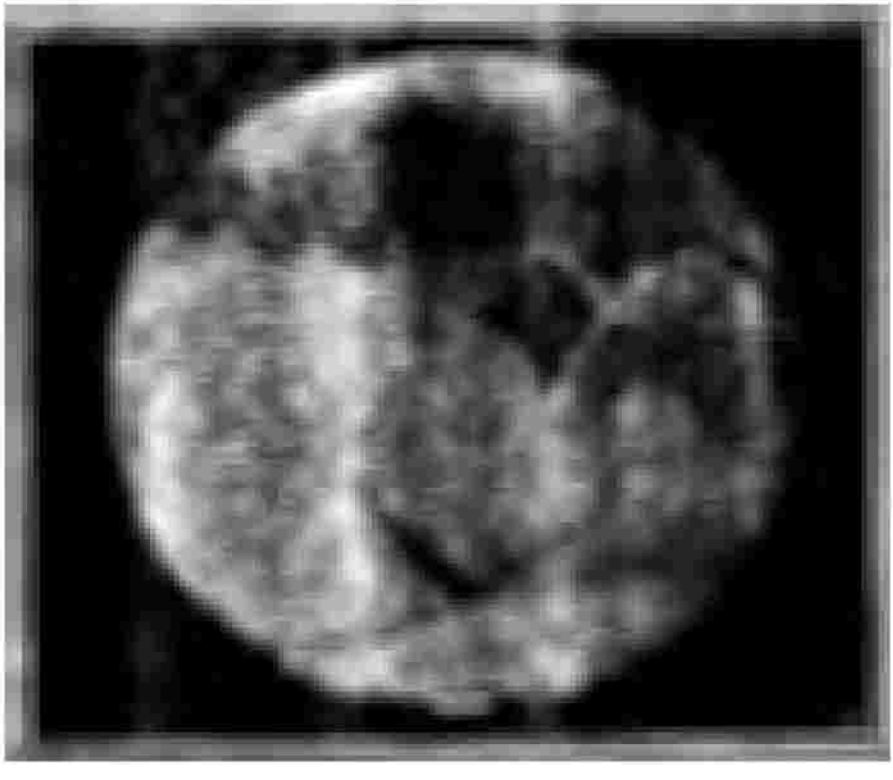

صورة المريخ كما رسمها الاستاذ لول ويظهر في أسفلها الثلج على القطب
والخطوط ترمز الى ما يحسب فيهما ترعاً ماري

مقتطف فبراير ١٩٢٩

امام الصفحة ١٧٧